يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

الذباب: الحشرة المعروفة: ويُطلَق على الزنابير والنحل. والذباب: البعوض بأنواعه (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا دليلاً رائعًا على بطلان الشرك وهلاك المشركين، حيث بين تعالى أن آلهتهم من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا لذلك، بل إن يسلبهم الذباب شيئًا من طعامهم لن يقدروا على استرداده منه. فما أضعف العابدَ والمعبودَ!

أليس من المحير جدًّا أن يقول بعض المسلمين، رغم وجود هذه الآية، أن المسيح عليه السلام كان يخلق الطيور (القرطبي). إن القرآن الكريم يعلن أن آلهة المشركين غير قادرة على خلق ذبابة ولو اجتمعوا له، بينما يقول المفسرون عندنا أن المسيح عليه السلام وحده خلق الطيور.

ذات مرة قال مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام لأحد المشايخ: إنك تزعم أن المسيح عليه السلام كان يخلق الطيور، وهذا يعني أن الطيور التي نراها في الدنيا بعضها قد خلقها الله تعالى وبعضها قد خلقها المسيح؛ فهل بوسعك أن تدلّنا على

ما يميز بين ما هو من خلق الله وما هو من خلق المسيح عليه السلام؟ فقال الشيخ باللغة البنجابية ما معناه: من الصعب الآن التمييز بين هذه الطيور لأنها قد اختلطت.

مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

ما قدروا الله: قدَر اللهَ: عظَّمه (الأقرب).

التفسير: أي أن الذين ينكرون التوحيد لم يقدروا صفات الله تعالى حق قدرها؛ وهذا ما سبّب لهم العثار.

وبالفعل ترى أن منكري التوحيد، أو الذين يزعمون وجود وسائل أخرى غير الله تعالى في إدارة الكون، إنما أساس عقيدتهم أن عقولهم لا تسلم بوجود كائن يرى الكون كله، ويسمع الأصوات كلها. إنهم يظنون أن هناك حاجة إلى وسائط تنقسم بينها صفات الله تعالى، ويستعمل كل واحد منهم هذه الصفات في مكانه. وإنما السبب الأساسي لهذه الخدعة قياسهم صفات البارئ تعالى على صفات الإنسان. وحيث إن الواحد منهم إذا نظر إلى جهة لم يستطع أن يرى الجهة الأخرى في الوقت نفسه، ظنوا أن رؤية الله تعالى أيضًا محدودة. ولما رأوا أنه ليس بوسعهم أن يسمعوا الأصوات من كل مكان في وقت واحد، ظنوا أن الله تعالى أيضًا ليس بقادر على سماع كل صوت من كل مكان في وقت واحد. فلما قاسوا الصفات الإلهية على الصفات البشرية أحسوا بحاجة إلى شركاء لله تعالى. وبناء على هذه الفكرة اعتقد بعض الفلاسفة أن علم الله تعالى كليٌّ وليس جزئيًّا.. بمعنى أنه تعالى يعلم أن الإنسان يأكل الطعام، ولكنه تعالى لا يعلم أن زيدًا – مثلاً – يأكل الآن. إنه تعالى يعلم أن الأولاد يولدون في بيوت الناس، ولكنه تعالى لا يعلم أن ولدًا يولد الآن في بيت عمرو. وليس أساس هذه الفكرة إلا أن الإنسان يقيس قدرة

الله تعالى على قواه البشرية المحدودة. ولكن انظر كيف أن الله تعالى، الذي كان البشر الضعفاء ينقّصون قدراته، قال لهم اليوم تعالوا لأزيد طاقاتكم وأريكم كيف توصلون أصواتهم إلى مسافات بعيدة جدًّا، وكيف تسمعون الأصوات بكل وضوح من أبعاد شاسعة. فمكَّن الله الإنسان من اختراع جهاز اللاسلكي، ليبين لـــه أنه إذا كان بإمكانك، أنت الكائن الحقير الذليل، أن تسمع باللاسلكي أصوات الدنيا وتوصل صوتك إلى مختلف أنحائها، فكيف تظن أن الله تعالى، الذي خلقك، لا يقدر على سماع صوتك؟ فعندما يوصل أحد المغنين أو المغنيات في إنجلترا صوته اليوم إلى شتى أنحاء العالم، فإن كل اهتزاز في الجو وكل ارتعاش للصوت يضحك على فلاسفة أوروبا، ويقول أيها الأغبياء، ألم تعلموا بعد أن الله تعالى قادر على سماع أصوات العالم كله. كذلك قد اختُرعت الآن مراصد ضخمة تمكّن من مشاهدة حركة الكواكب الموجودة على بعد مئات الآلاف من الأميال. هذا وقد تمّ تطوير جهاز اللاسلكي الآن تطويرًا كبيرًا بحيث يُري الصورَ من أبعاد شاسعة هائلة. قصارى القول إن التقدم العلمي قد أزال اليوم تلك الشبهة القائلة كيف يمكن أن يرى الله تعالى الكون كله، وكيف يسمع أصوات الكون كلها، حيث تبينَ للناس أنه إذا كان بوسع الإنسان، وهو كائن حقير، أن يوصل صوته إلى الدنيا كلها، كما يمكن أن يسمع صوت شخص جالس في الناحية الأخرى من العالم، بل يرى صورته أيضًا، أفليس الله ذو الجلال بقادر على أن يرى كل شيء ويسمع صوت كل إنسان؟ وحيث إن الله تعالى يبصر كل شيء ويسمع صوت كل إنسان، فما الحاجة به إلى أي إله مساعد؟ إنه تعالى وحده يسيطر على الكون كله، ويحكم بمفرده على كل شيء.

إذًا، فقد نبّه الله تعالى بقوله ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى هذا الخطأ الأساسي عند المشركين، مبينًا أنهم يخطئون في معرفة قدرات الله تعالى لأنهم يقيسونها على ما عند البشر من قوى وطاقات، وبالتالي يقعون في العقيدة السيئة كالشرك.

ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

يصطفي: اصطفاه: اختاره (الأقرب).

التفسير: أي أن الله تعالى سيظل ينـــزل ملائكته على عباده الأطهار، كما سيظل يختار من عباده المصطفَين رسلاً ليبعثهم إلى الدنيا، لأنه تعالى سميع الدعاء وبصير بظروف العباد.؛ فكلما يجد روحَ إنسانٍ تتعطش إلى ماء السماء سينـــزل الله تعالى عليه الماء من السماء، وكلما يرى عباده قد انحرفوا عن الهدى سيبعث لهدايتهم عباده الأطهار.

كان الكلام قبل هذه الآية موجهًا إلى الذين كانوا معاصرين للرسول ﷺ وليس إلى الذين خلوا من قبله. وبما أن الله تعالى يصرح هنا أنه يختار رسله من الملائكة والناس وسيختارهم دائمًا في المستقبل – كما هو واضح هنا من فعل المضارع ﴿يَصْطَفِي﴾ – لذا فإن هذه الآية تسلط الضوء بكل جلاء على قضية إمكانية استمرار النبوة في أمة المصطفى ﷺ، حيث يتضح منها أن الله تعالى سيظل يبعث البعض من أمته ﷺ على مقام النبوة والرسالة.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٧﴾

التفسير: أي أن الله تعالى يعلم ما قد فعله الإنسان وما لم يستطع أن يفعله، وإليه ترجع الأمور كلها؛ فكيف يمكن أن لا يهدي الناسَ عند الحاجة. إذ لو لم يهدهم الله تعالى حُقّ لهم عند المثول أمامه تعالى للحساب، أن يقولوا يا رب، أنت الذي لم تمدّنا بالهدى عند حاجتنا إليه، فما ذنبنا في ذلك؟

ويتضح أيضًا من قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَينَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أن أحدًا لا يوهب النبوة بناء على كفاءاته السابقة فحسب، بل أيضًا بالنظر إلى كفاءاته التي من شأنها أن تنكشف في المستقبل، ومن أجل ذلك ذكر الله تعالى هذا الأمر مقرونًا بموضوع اختيار الرسل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

اركعوا: ركَع المصلّي رَكْعًا وركوعًا: طَأْطَأَ رأسَه. ركَع إلى الله: اطمأنّ إليه. ركَع الرجلُ: انحطّتْ حالُه وافتقرَ. وركَع المصلّي في الصلاة ركوعًا: خفَض رأسَه بعد قومة القراءة حتى تنال راحتاه رُكْبتيه أو حتى يطمئنّ ظهرُه. والراكع: كلُّ شيء يخفض رأسَه (الأقرب).

وورد في تاج العروس: "قال ثعلب: الركوع الخضوعُ. وكانت العرب في الجاهلية تسمّي الحنيفَ راكعًا إذا لم يعبد الأوثان، ويقولون: ركَع إلى الله."

فالركوع يعني التذلل والخضوع، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿ارْكَعُوا﴾: (١) تواضعوا، (٢) اعبدوا الله عبادة خالصة مستمسكين بالتوحيد تمامًا.

اسجدوا: سجَد: خضَع وانحنى. وسجَد البعيرُ: خفَض رأسَه. وسجَدت السفينةُ للرياح: طاعَتْها ومالت بميلها. وفلانٌ ساجدُ المنخَرِ أي ذليل خاضع (الأقرب). فالمراد من قوله تعالى ﴿وَاسْجُدُوا﴾: أطيعوا الله وانقادوا لـــه.

التفسير: لقد نبه الله تعالى هنا المؤمنين إلى الواجبات التي تساعد الجماعات الإلهية على النجاح، والتي من المستحيل أن تتغلب بدونها.

وليكن معلومًا أن منهج الجماعات الدنيوية مختلف تمامًا، ولا يمكن أن تقاس عليه الجماعات الإلهية. إذ لا ترى الجماعات الدنيوية ضرورة التمسك بالصدق، فتلجأ إلى الكذب والغش والخداع، وتسعى لنجاحها بكل طريق ممكن مشروع وغير مشروع. ولكن الدين قد حرّم بتاتًا هذه الأساليب والمكائد التي تُعتبر سببًا للنجاح في الدنيا عادة. يلجأ الناس في أمور دنياهم إلى الكذب محتجين أنه لا مناص لهم منه. ويقومون بالغش والخداع زاعمين أنه لا مفر لهم منه. ويعاملون بالنفاق قائلين أنه لا مهرب لهم. فإننا نرى أن دولة عندما تريد إلحاق الضرر بأمة أخرى، فإنها، من ناحية، تستجمع كل قواها للهجوم على الأخرى، آخذةً أهبة الاستعداد في كل شعبة من شعبها، ومن ناحية أخرى، تعلن حكومتها في الوقت نفسه بأعلى صوتها أن لها علاقات ثنائية طيبة مع تلك الدولة؛ ومع أنها تكون قد صممت على شن الهجوم على الدولة الأخرى، إلا أنك تجد مفكريها يعلنون أنهم لن يألوا جهدًا في أن يتصالح الطرفان؛ ولا يكون الهدف من هذه الإعلانات إلا خداع العدو. وعدوهم أيضًا يتعامل معهم بنفس الطريقة، فيلجأ هو الآخر إلى المكر والخداع والكذب. ولكن الله تعالى لا يسمح للجماعات الإلهية اتباع هذا المنهج المعوج، وإنما يقال لهم: لا تفاجئوا أحدًا بالهجوم، وإذا كنتم في عهد مع قوم، ووجدتم أنهم

يغدرون بعهدهم، فعليكم أن تعلنوا لهم إلغاء المعاهدة قبل شن الحرب عليهم بمدة كافية، إن أردتم حربهم. إذًا، فهناك مشاكل كبيرة أمام الأمم الدينية، إذ من غير المسموح لها أن تتخذ التدابير التي يلجأ إليها أهل الدنيا؛ لذا فإن العقل يقتضي أن يكون هناك شيء يساند هؤلاء الأبرار إزاء غش الأعداء ومكرهم وكذبهم. وقد ذكر الله تعالى ذلك السند في هذه الآية، وفيما يلي بيانه.

يقول الله تعالى هنا أولاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا﴾. علمًا أن الركوع هنا يعني أن يتوجه المرء إلى الله تعالى مع إيمان كامل بتوحيده ويطرد فكرة كل ما سوى الله تعالى من القلب كلية. وكأن الركوع هو الإيمان الكامل بتوحيد البارئ تعالى، وطردُ فكرةِ عبادةِ أحدٍ سوى الله تعالى من القلب أو الثقة به أو التوكل عليه أو الأمل منه. يقال "فلان راكعٌ إلى الله".. أي مال إليه تعالى طاردًا كل فكرة لأي شيء مادي من قلبه. إذًا، فالركوع هنا لا يعني الركوع الذي في الصلاة حيث يخضع ويأخذ برُكبتيه بيديه، لأننا لا نقوم بمثل هذا الركوع خارج الصلاة بل هو جزء منها. والركوع.. مجرّدُ الركوع.. ليس ثابتًا في الإسلام في أي مكان إلا ما هو في الصلاة، كما أن السجود.. مجرد السجود.. أيضًا ليس ثابتًا في الإسلام خارج الصلاة إلا سجود الشكر على نعمة ما، أو الذي يكون خلال تلاوة القرآن، أو السجود الذي يجوز للداعي القيام به أثناء الدعاء. فالركوع هنا يعني ميل المرء إلى الله تعالى نافضًا من القلب كل تفكير في ما سوى الله تعالى، ومؤمنًا بالتوحيد الكامل. وكأن هذا الركوع هنا يقوم مقام الأشياء التي يأمرنا الله بتركها مثل الغش والخداع والكذب.

وقد استعمل الله تعالى هنا لفظ الركوع لأن الشيء الراكع يميل إلى ناحية، ولأن المرء إنما يتكئ على شيء إذا كان مائلاً إليه، أما إذا ظل مستقيمًا فلا يمكنه الاتكاء عليه. فقوله تعالى ﴿ارْكَعُوا﴾ هو أمرٌ بالتوكل على الله تعالى والميل إليه

فقط. إن الزور والخداع والنفاق سند أهل الدنيا وعمادهم، ولكن الله يقول لنا إن هذه الأمور سند سيّء، فاتركوها ولا تقتربوا منها. والقاعدة أن الإنسان إذا ما حُرم من سند احتاج إلى سند آخر، لكونه غاية في الضعف وقلة الحيلة. فمثلاً إذا مشى الإنسان المريض الضعيف اتكأ على عُكّاز، أو إذا توقف استند إلى جدار، أو إذا تعب جلس على كرسي، أو إذا كان مستلقيًا على سريره وأراد أن يهبَّ استند إلى مرفقه أو إلى وسادة. فالإنسان بحاجة إلى الاستناد إلى أشياء أخرى وقت المرض والضعف. وبما أن الإنسان جد ضعيف في العالم الروحاني، حيث تقف آلاف الأمور الخفية سدًا منيعًا دون رقيه الروحاني، فإنه بحاجة إلى سند ما في العالم الروحاني أيضًا. إن الشخص المادي يستند في مثل هذه الظروف إلى الغش والخداع والكذب والمكر، ولكن الله تعالى يقول للمؤمنين إياكم وهذه الأمور كلها، فلا تخدَعوا ولا تكذِبوا ولا تغشّوا ولا تلجأوا إلى أي طريق غير مشروع. وما دام الشرع قد حرَم الإنسان الضعيف من كل سند مادي، فماذا يفعل إذًا؟ إذ لا بد للضعيف من سند، وحرمانه من السند يماثل حرمانَ الشخص المعوّق من عُكّازته، أو يشبه نـــزعَ الوسادة من تحت المريض، أو هو بمثابة إبعاد الكرسي عن الضعيف إذا ما هَمَّ بالجلوس عليه. إنه لا بد لـــه من سند في هذه الحالة وإلا سيقول: آتوني ما أعتمد عليه وإلا سأسقط على الأرض. فيجيب الله تعالى على سؤاله هذا في هذه الآية فيقول ﴿ارْكَعُوا﴾. أي عليكم أيها المؤمنون أن تتّكلوا عليّ، وتتوجهوا إليّ. ومثل سلوك الله تعالى هذا كمثل إنسان يأخذ من شخص عصاه، ويقدم لـــه كتفه قائلا: تعال امشِ متكئًا على كتفي. فالله تعالى إذا ما نهانا عن اللجوء إلى الطرق غير المشروعة من جهة، فإنه من جهة أخرى قال لنا إنكم بحاجة إلى سند ما في كل حال، فتعالوا واعتمِدوا عليّ واستندوا إليّ.

إذًا، فلفظ الركوع يدعونا إلى التوكل على الله تعالى، حيث يعلّمنا الله تعالى أنه ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله تعالى، مؤمنًا بأنه تعالى نفسه سيتدارك ما في أعماله من نقصان. فما دام الله تعالى قد نهى المؤمن عن اللجوء إلى التدابير المادية غير المشروعة من أجل النجاح فقد صار تعالى نفسه كفيلاً لـــه، وسيسدّ لـــه ما في عمله من خلل ونقص.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾. والسجود هنا أيضًا ليس السجود الذي نقوم به على الأرض أثناء الصلاة، والدليل على ذلك هو قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَاعْبُدُوا﴾، فإن عبادتنا تشمل السجود أيضًا. إنما يعني قوله تعالى ﴿وَاسْجُدُوا﴾ هنا أن عليكم بطاعةِ الله طاعة كاملة واتباعِ أحكامه اتباعًا تامًّا، واعملوا كما يأمركم به سواء أَفَهِمتم حكمته أم لم تفهموا. ذلك لأن الإنسان يعلم أن الله تعالى قد أمره بفعل شيء، ومع ذلك يظن، بسبب حمقه وغبائه، أن فيه هلاكه، ولكنه لو عمل به ابتغاء مرضاة الله تولى الله حفظه وحمايته، فيبدأ نـــزول النعم عليه بدلاً من أن يهلك ويباد. لقد ورد في الحديث مثال لطيف رائع يبين كيف أن الذين يتحملون الأذى لوجه الله تعالى ويلقون أنفسهم في التهلكة في الظاهر، يرثون أفضال الله تعالى في نهاية المطاف، ويخلق الله تعالى لهم من أسباب الهلاك أسباب البركات.

ورد في الحديث أن الله تعالى سيأمر عبدًا من عباده يوم القيامة بأن يقفز في النار، فيقفز فيها دونما خوف، ويقول في نفسه: ما دام الله تعالى يأمرني أن أدخل النار، فأنا راض بها. ولكنه حين يدخل فيها تتحول جنةً ذات راحة ونعيم، فيلعب بالنار، فيقول الله تعالى انظروا إلى عبدي كم هو فرحان بالنار.

والحق أن هذا المثل يبين لنا أن الذين يلقون أنفسهم في التهلكة في الظاهر بتقديم التضحيات في سبيل الدين، يخلق الله لهم أسباب الرقي من أسباب الهلاك نفسها. الدنيا تظن أنهم قد قفزوا في النار، ولكنهم حين يقفزون فيها تتحول لهم إلى الجنة.

ومن المعروف أن الجزيرة العربية كلها ارتدت إثر وفاة النبي ﷺ، حتى خاف هذه الفتنةَ أبطالٌ كعمر وعليّ – رضي الله عنهما. وكان النبي ﷺ قد جهز جيشًا قبيل وفاته لشن الهجوم على بعض المناطق الرومية، وأمّر عليه أسامة ﷺ، ولكن عاجلتْه ﷺ المنيّة قبل رحيل الجيش. ولما رأى الصحابة ارتداد الجزيرة العربية كلها إثر وفاته ﷺ خافوا خوفًا شديدًا، وظنوا أنه لو بُعث جيش أسامة لحرب الرومان خلال هذه الثورة والتمرد فلن يبقى في المدينة إلا الشيوخ والنساء والولدان، ولن يكون هناك من يحرس المدينة. فاقترحوا أن يذهب وفد من كبار الصحابة إلى أبي بكر ﷺ يلتمس منه منع الجيش من الخروج إلى أن تُخمد الثورة. فذهب إلى أبي بكر وفدٌ من كبار الصحابة بمن فيهم عمر، وعرضوا عليه التماسهم. فقال أبو بكر ﷺ للوفد وهو غضبان: هل تظنون أن أول عمل يقوم به ابن أبي قحافة بعد وفاة النبي ﷺ هو أن يمنع الجيش الذي أمر ﷺ بتسييره – علمًا أن أبا قحافة هو كنية والد أبي بكر ﷺ، وكان من بسطاء الناس في مكة. وكان أبو بكر ﷺ إذا أراد الإشارة إلى ضآلة شأنه ذكر اسم أبيه، مبينًا أنه ما كان لي أن أفعل كذا وكذا، فإني ابن فلان. وفي هذه المناسبة ذكر أبو بكر أيضًا اسم أبيه وقال: أنَّى لابن أبي قحافة أن يوقف الجيش الذي جهزه النبي ﷺ للقاء العدو – ثم قال أبو بكر ﷺ: فليرتد العرب كلهم. والله لو أن العدو اقتحم المدينة وعاث فيها، حتى جرّتِ الكلابُ

جثث المسلمات في شوارع المدينة*، لأبعثنَّ الجيش الذي أمره النبي ﷺ بالخروج. فإذا كنتم تخافون جيوش العدو فاتركوني إن شئتم، ولسوف أحارب العدو وحدي. (البداية والنهاية، مجلد ٣ ص ٣٠٤: فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد)

من أين استمدّ أبو بكر ﷺ هذه الشجاعة والبسالة، يا ترى؟ إنما هي نتيجة العمل بقول الله تعالى ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾. فكما أن السلك العادي إذا اتصل بتيار الكهرباء تولدت فيه طاقة هائلة، كذلك إذا حظي المرء بقرب الله تعالى فليس بوسع أي قوة في الدنيا مقاومته. إذا عزلتَ السلك عن تيار الكهرباء لم يعد ذا شأن، ولكنه إذا كان متصلاً بتيار الكهرباء وبدون غلافه المطاطي، فلو لمسه أقوى شخص في العالم لسقط على الأرض كالفأر الميت، ولن تنفعه قوته شيئًا.

بالاختصار، إن الناس يقدّمون تضحيات جسيمة من أجل العز المادي، فيقول الله تعالى للمؤمنين مشيرًا إلى هذا الأمر: ما دمتم قد أتيتم إلينا، فعليكم أن تدركوا جيدًا أنكم لن تحرزوا أي نجاح بدون العمل بوصيتنا وهي: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾. واعلموا أنكم إذا توكلتم علينا وعاهدتمونا بطاعة أوامرنا طاعة كاملة وقمتم بعبادتنا فلا بد أن نكتب لكم النجاح والفلاح.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾.. أي أنكم إذا توكلتم على الله تعالى، ووضعتم نير طاعته على أعناقكم، وقمتم بعبادته ليلاً ونهارًا، فواجبكم الرابع أن تسعوا لخير الإنسانية. فارعوا الأيتام، وتفقَّدوا أحوال الأرامل، وأشفقوا على

---

* ونصُّ ما قاله أبو بكر ﷺ بحسب إحدى الروايات هو: "والله، لا أحلّ عقدةً عقَدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرّتْ بأرجل أمهات المؤمنين، لأجهّزنّ جيشَ أسامة، وآمر الحرسَ يكونون حول المدنية." (البداية والنهاية: فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد مجلد ٣ ص ٣٠٤) *(المترجم)*

المساكين وعاملوهم بالرأفة، وأحسِنوا إلى الجيران، وانشروا الإسلام بين الشعوب التي لا علم لها به، وافعلوا كل خير لعلكم تفلحون.

وفيما يتعلق بأمر الله تعالى ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فإن الناس يقبلونه إلى حد ما، ولكنهم يظنون أنهم سيهلكون إذا عملوا بأحكام الله الأخرى. يقولون: كيف لا يهلك من يتوكل على الله تعالى. ويقولون: من يعمل بأحكام الدين ويتبرع في سبيله بالمال، فليس مصيره إلا الفقر. ويقولون: إن الذي يصلي خمس صلوات لا بد أن يضيّع ثلاث أو أربع ساعات يوميًّا، وكيف ينجح في الدنيا من يضيع هذا القدر الضخم من وقته الثمين؟ إذًا، فالدنيا ترى أن هذه الأحكام كلها تؤدي إلى الهلاك، بينما يوصي القرآن الكريم المؤمنين بأن لا يعملوا إلا هذا، لأن ثمة بونًا شاسعًا بين الرقي المادي والرقي الديني، ولأن وسائلهما أيضًا تختلف اختلافًا كبيرًا.

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

جاهِدوا: جاهَدَ في سبيل الله مجاهدةً وجِهادًا: بذَل وُسْعَه. وجاهَدَ العدوَّ: قاتَلَه (الأقرب).

وفي المفردات: "الجهاد والمجاهدة: استفراغُ الوُسْعِ في مدافعة العدو. والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدةُ العدوِّ الظاهرِ، ومجاهدةُ الشيطان، ومجاهدةُ النفس؛ وتدخُل ثلاثتُها في قوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. (المفردات)

اجتباكم: اجتباه: اختاره واصطفاه (الأقرب).

حرج: ورد في المفردات: "قيلَ للضيق حرجٌ وللإثم حرجٌ".

اعتصِموا: اعتصمَ به: أمسكَه بيده. واعتصمَ بالله: امتنعَ بلُطفه من المعصية. واعتصم فلان من الشرّ والمكروه: التجأَ وامتنعَ (الأقرب).

التفسير: أي لا تكتفوا بالإقرار باللسان فحسب، بل اسعوا بالأعمال في سبيل الله حق السعي، فهو قد اصطفاكم دون الأمم الأخرى في أمور الدين، وقد اختار لكم ذلك الدين الذي لا ضيق فيه، بل إنه يساعد على السير في الصراط المستقيم دونما ثقل يفوق طاقتكم.

وقد تحدث المفسرون في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. فمنهم من قال إنه إشارة إلى سماح الإسلام بقصر الصلاة خلال السفر. ومنهم من يقول بل هو إشارة إلى كثرة الزوجات ورخصة الإفطار للمسافر. ومنهم من يقول إنه إشارة إلى جواز صلاة المريض جالسًا وعدم فرضية الجهاد على من لا يقدر عليه. (القرطبي)

لا شك أن هذه الأقوال صحيحة ولا بأس بها، ولكن يجب أن نأخذ في الحسبان أن الله تعالى قد استعمل هنا لفظ ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾.. أي أنه لم يجعل في الدين أي نوع من الضيق. فثبت أنه تعالى لا يشير هنا إلى نوع خاص من الضيق، بل ينفي كل نوع منه. والموضوع الحقيقي الذي يبينه الله تعالى هنا هو أنه لم ينـــزل الشرع لكي يثقل على الناس، وإنما لكي يضع عنهم أثقالهم. لقد قال المسيحيون خطأً أن الشرع لعنة (رسالة بولس الأولى إلى أهل غلاطية ٣: ١٣)، مع أن الشرع هو بمثابة إرشاد

وهداية، ولا يعدّ الهدي والإرشاد لعنة إلا الغبي الأحمق. فمثلاً، تصف كتب الطب بعض الأشياء بأنها سمّ، وأنه إذا تناول أحد ذلك السمّ فعليه أن يتناول كذا من الأشياء فإنه ترياق يزيل التأثير الضار لذلك السم. فمن ذا يعتبر هذه الكتب لعنة يا تُرى؟ كلا، بل إنها تجلب الراحة والسعادة للناس دائمًا، وليس التعب والأذى. وبالمثل إن الشرع يعلّمنا طرق تفادي الأمراض الروحانية والآفات المادية، ويرشدنا إلى التدابير التي تنجي من المصائب التي قد حلّت بالفعل. قال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(النساء: ٢٧-٢٩).. أي أن الله تعالى يريد أن يبين لكم كل المسائل بكل وضوح، ويخبركم ما هو خيرٌ لكم من الأعمال وما هو ضار بكم. لقد خلت قبلكم شعوب، فنَعِمَ بعضهم بالراحة والسعادة نتيجة أعمالهم، وذاق بعضهم الأذى. ويريد الله تعالى أن يبين لكم أحوالهم تمامًا، ويهديكم إلى طريق قوم نجوا من الهلاك، لأنه تعالى يعلم أخبارهم جيدًا، ويعلم الحكمة وراء كل شيء. يريد الله تعالى أن يتم رحمته عليكم من خلال شرعه، ولكن الذين يتّبعون شهواتهم يودّون أن تميلوا كلية إلى جهة واحدة، أي أن تنحرفوا عن جادة الوسط والاعتدال، وتميلوا إلى طرف واحد.

ثم يقول الله تعالى: إنه يريد أن يخفف عنكم أثقالكم لأن الإنسان قد خُلق ضعيفًا بفطرته، والله يعلم أن الإنسان سيتضرر ضررًا كبيرًا إذا لم يُؤتَ أي نوع من التعليم والهدى.

فالواقع أن هدف الشرع تخفيف أثقال الإنسان وإنقاذه من الأخطار والمصائب بكل أنواعها. وهذا ما قد ذكره الله تعالى في قوله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، مبينًا أنه ليس في الدين الذي قد أنـــزله الله لكم حكمٌ يدفعكم إلى الحرج

والمعاناة، بل لو تدبرتم في أي حُكم من أحكامه، صغيرًا أو كبيرًا، لوجدتموه بركة ورحمة للناس.

ثم يقول الله تعالى ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.. أي أنه دين أبيكم إبراهيم، وليس هو بدين جديد حتى يشقّ عليكم اتّباعه. بل هناك أكثر من ذلك وهو أن الله تعالى قد سماكم المسلمين من قبل وفي هذا الكتاب أيضًا حتى يشهد محمد رسول الله ﷺ بعَمله على أنه هو النبي الموعود على لسان إبراهيم وغيره من الأنبياء السابقين؛ ولتكونوا أنتم أمام الأمم الأخرى شهداء على أنكم أنتم الذين تستحقون بجدارة هذا الاسم الجديد الذي أنبأت به الصحف السابقة.

أما النبوءة المشار إليها في قوله تعالى ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فقد وردت في سِفْر إشعياء النبي كالآتي: "وتُسَمَّينَ باسمٍ جديد يعيّنه فمُ الربِّ." (إشعياء ٦٢: ٢)

كذلك أنبأ إشعياء النبي: "وتُخلِفون اسمَكم لعنةً لِمُختارِيَّ، فيُميتُك السيّدُ الربُّ، ويسمّي عبيدَه اسمًا آخر". (إشعياء ٦٥: ١٥)

لقد حاول كَتَبةُ الكتاب المقدس تطبيق نبوءة إشعياء هذه على الكنيسة.
(The Old Testament with a brief commentary: Word: "Isaiah")

ذلك بالرغم من أن الله تعالى لم يعط المسيحيين أي اسم من عنده؛ كما أن شتى الأسماء التي اختارتها شتى الفرق المسيحية لنفسها إنما هي من اختيارها هي، وليس من اختيار الله تعالى. هناك أمة واحدة فقط في الدنيا تلقت اسمها من عند الله تعالى أعني المسلمين؛ وإلى هذا قد أشار الله تعالى بقوله ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أما قوله تعالى ﴿وَفِي هَذَا﴾ فهو إشارة إلى دعاء لإبراهيم عليه السلام قد سجله القرآن الكريم كالآتي: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾

(البقرة: ١٢٩).. أي ربنا عُدَّني أنا وابني إسماعيلَ من المسلمين عندك، وأَخْرِجْ من أولادنا أيضًا جماعةً كبيرة تكون مسلمةً عندك. وطبقًا لهذه الأنباء قد أعلن محمد رسول الله ﷺ أن الله تعالى قد سمى أُمّتي "المسلمون" وديني "الإسلام".

وينطوي لفظ "الإسلام" على حكمة عميقة وفلسفة عظيمة، ولو أمعنتَ النظر فيه لوجدت أنه يبين غاية هذا الدين بكل وضوح وجلاء. فمن خصائص اللغة العربية الرائعة أنه ليست الكلمات فيها وحدها تؤدي معاني معينة، بل إن الحروف فيها أيضًا تتضمن مفاهيم معينة. كما أن اللفظ الموضوع لشيء في العربية لا يكون علامة على ذلك الشيء فحسب، بل يُطلَق عليه لسبب هام، حيث يدل على الميزة الخاصة بذلك الشيء والتي بسببها أُطلق عليه ذلك الاسم. فمثلاً يقال في لغتنا "الأردية" للشيء الطويل "لمبي" وللشيء القصير "چھوٹی"، وللأم "ماں"، وللأب "باپ"، غير أن هذه الكلمات لا تدل على الميزة الخاصة التي بسببها أُطلقت هذه الأسماء على هذه الأشياء، ولو أننا سميناها بأسماء أخرى لما حصل أي نقص في هدفنا. فمثلاً لو أطلقنا على الشيء الطويل "چھوٹی" وعلى الشيء القصير "لمبی"، ثم راجت هذه التسمية وتداولت لما حصل أي نقص في لغتنا الأردية. ولكن الأمر ليس هكذا في العربية، إذ لا يجوز فيها أن تسمي الطويل قصيرًا، لأن حروف "ق ص ر" لا تدل على المعاني التي تتضمنها حروف "ط و ل". قصارى القول، إن أسماء الأشياء في اللغات الأخرى إنما تكون مجرد علامة لها، ولا حرج لو وضعنا لها أسماء أخرى، أما العربية فلا يكون الاسم فيها علامة شيء فحسب، بل يدل أيضًا على ميزته الخاصة، لذا فمن المستحيل أن نستبدل اسمًا لشيء بآخر.

وقد اختار الله تعالى لدين الإسلام اسمًا ينطوي على مزايا كثيرة وحِكم بالغة. فكلما اجتمعت في كلمةٍ حروفُ "س ل م"، التي يتكون منها لفظ الإسلام، دلت على معنى الحفظ والحمايةً حتمًا، ولا يزال هذا المفهوم قائمًا في كل الكلمات التي تتكون نتيجة تغيير ترتيب هذه الحروف. خذوا مثلاً لفظ "الإسلام"، الذي يعني الطاعة والانقياد، فهذا المعنى يتضمن مفهوم الحفظ والحماية حتمًا، لأن المرء إذا

أطاع كبيرًا من الكبراء حُفظ تلقائيًّا من الأذى الذي قد يصيبه من طرفه. ثم إن الشخص المطيع المنقاد هو الذي تكون نفسه وماله في حفظ وحماية، إذ لا يتمتع المتمردون بحماية في أي دولة، بل كان يقال في العصور القديمة عن هؤلاء "إنهم خارج القانون"، ولو قتلهم أحد لم تعاقبه الدولة.

ثم هناك لفظ "السَّلْم" ومعناه النجاة من المصائب والآفات.

ويقال "سلَم الجِلْدَ" أي دَبَغَه بالسَّلَمِ.* وإنما يُدبَغ الجلد ليصان من التآكل والضياع. وهنا أيضًا تجد معنى الحفظ.

ويقال: سالَمَه إذا صالحَه. والصلح أيضًا يكون بهدف الاتقاء من الشر.

ويقال: تسلَّمَ الشيءَ: قبَضه. والبديهي أن الشيء إذا وقع في قبضة صاحبه صار مصونًا.

ويقال: استلَمَ الزرعُ: خرَج سُنبلُه. وهنا أيضًا تجد معنى الحفظ، لأن الفلاح لا يطمئن ولا يرى نفسه مصونًا من الخسارة ما لم يخرج زرعه سنابله وما لم تنبت الحبة فيه.

والسلام اسم من أسماء الله تعالى لكونه بريئًا من كل نقص وعيب.

وفي الاشتقاق الكبير ينقلب لفظ "السلم" إلى كلمات أخرى وإليك بيانها:

السمل، يقال سمَل الحوضَ سملاً: نقّاه من السَّمَلة وأصلحه. وسمَل بين القوم: أصلحَ.

واللَّمْسُ أيضًا فيه معنى الحفظ لأن المرء إنما يصون الأشياء بحواسه التي منها اللمس.

ومسَل الماءَ: سالَ. وإذا سال الماء إلى الزرع حماه من الجفاف والتلف.

واللَّسْم هو السكوت. وغنيٌّ عن البيان السلامُ الذي يتمتع به المرء نتيجة سكوته. ولنعم ما قيل: البلاء موكَّل بالمنطق.

والملس هو المداهنة، وإنما يداهن المرء ليتقي شر غيره بكلامه المعسول.

---

* السلم: شجرٌ من العضاه يُدبَغ به (الأقرب). *(المترجم)*

بالاختصار، إن حروف "س ل م" في العربية تعطي دائمًا معنى الحفظ والحماية أيًا كان ترتيبها في الكلمات المركبة منها. وعليه فالمراد من "الإسلام" قيام المرء بأعمال تنجيه من الهلاك. وكأن الله تعالى قد بين في هذا الاسم الغاية من بعثة محمد رسول الله ﷺ، ألا وهي أن يصير الناس في مأمن من غضب الله تعالى وينجوا من التنازع والتحارب. أي أن تكون لهم صلة وثيقة بالله تعالى من جهة، ومن جهة أخرى أن يعاملوا الناس معاملة طيبة تؤدي إلى الحب والوئام بينهم وتقضي على الفتنة والفساد. والحق أن الدين الحق يهدف إلى هذين الأمرين: إنه يقوي صلة العباد بالله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يحثّهم على الشفقة على خلق الله تعالى. وإذا توثقت صلتهم بالله تعالى نتيجة عملهم بهذا التعليم، وصاروا مشفقين على خلق الله تعالى، أصبحوا في مأمن من سخطه تعالى، كما لم يبق لهم خطر من قبل بني جنسهم أيضًا؛ وهكذا أحرزوا السلام الروحاني والمادي كليهما. إذًا، فإن الله تعالى قد بين بلفظ "الإسلام" حقيقة الدين كلها، موضحًا أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يدعو العباد إلى أداء حقوق الله تعالى كاملةً، كما يحافظ على حقوق الناس دونما نقصان.

إن صلة الإنسان الأولى تكون مع ذات البارئ تعالى. فمن أطاع الله تعالى صار مسلمًا، لأنه يخضع أمام أوامر الله تعالى كل الخضوع، وهذا هو الشرح الحقيقي للإسلام.

وصلة الإنسان الثانية تكون مع نفسه وبني جنسه. فمن وقى نفسه من الفتن وتجنّبَ الشرَّ والخيانة والظلم والكذب والغش والخداع والحقد والبغضاء، فهو أيضًا مسلم إذ هيأ السلام لنفسه. ومن نفع قومه فهو أيضًا مسلم. ومن هيأ الأمن لجيرانه وأقاربه ولم يفسد بينهم ولم يسفك دماءهم فهو أيضًا مسلم. ولكن الذي يعمل خلاف ذلك فليس بمسلم وإنْ سمى نفسه مسلمًا بالليل والنهار إذ لا يتغير الشيء بتغيير اسمه. فإننا نرى أن بعض الصبيان يضع خلال اللعب يده على يد صاحبه ويقول لـــه خُذْ حبة المانجو هذه وكُلْها، أو خُذْ هذه القطعة النقدية، مع أنه لا يكون في يده أي شيء. إن هذا العمل الصبياني يمكن أن يمثّل مزاحًا يُضحِك آباء

هؤلاء الصبيان، أو قد يجعل الصبي الآخر يضحك حيث مازحه الطفل الأول، ولكن لا يكون فيه أي نفع حقيقي. يمكنك في عالم التصور والخيال أن تهب لأحد الدنيا وما فيها، ولكن هذا لن يغيّر من وضعه الحقيقي شيئًا. وعلى النقيض لو وهبت له قرشًا واحدًا بالفعل فسينتفع به يقينًا. هذا هو حال الإيمان؛ فالذي يدّعي الإسلام بلسانه فقط لن ينفع الناس شيئًا، ولكنه لو عمل وفق مفهوم الإسلام، ولو قليلاً، لانتفع بنفسه نفعًا كبيرًا، كما نفع الآخرين أيضًا نفعًا حقيقيًّا.